الفصل السادس عشر
مواقف من غرفة العمليات

obeikandl.com

مواقف من غرفة العمليات

تُعدُّ غرفة لعمليات الجراحية إحدى أهم الأماكن في أي مستشفى على امتداد العالم، فعندما تُجهَّز لإجراء عملية ما؛ فإنها تحول إلى خلية نحل، فكل أفراد الطاقم الطبي يتحركون بجد واجتهاد، ويُسخِّرون كل طاقاتهم وإمكاناتهم العلمية والمهنية لإنقاذ حياة المريض مستمدين هممهم وعزائمهم من الله سبحانه وتعالى. ولأن هذه الغرفة ترتبط بحياة المريض؛ فإن الاهتمام بها يشكل أولوية قصوى، إذ يُراعى في تصميمها الاتساع والتعقيم والترتيب والهدوء، مع الحرص على وجود ترابط واتساق كامل بين أجزائها التي تتضمن: التخدير، التمريض، الجراحة، التخزين، الأجهزة، التعقيم، الإضاءة. ويراعى ذلك أيضاً عند الحاجة إلى إجراء عمليات المناظير والتصوير وغير ذلك، ولذا فهي مكان علمي دقيق ذو خصوصية فائقة، وبين جدرانها تتعلق قلوب بين هم خارجها من ذوي المرضى يترقبون بلهفة إطلالة الطبيب؛ خاصة إذا كان مرضاهم من أصحاب الحالات الحرجة. ومع هذا كله فإن غرف العمليات لا تخلو من مواقف كثيرة؛ طريفة أحياناً ومحيرة وحزينة أحياناً أخرى بالنسبة للفريق الطبي. فمن أجل التغلب على طول الوقت والضغط الذي يصاحب العمليات الجراحية المعقدة؛ يعمد رئيس الفريق الجراحي إلى تخفيف الأحاسيس الصاغطة، وإلى إراحة الأعصاب المشدودة بفعل الانتباه والتركيز بإطلاق بعض أنواع الدعابة والمزاح اللطيف الذي يمكن أن يساعد في إضفاء جو مريح ومناسب لبقية زملائه، ولا مشاحة في ذلك إذا ارتخت الأعصاب وارتاحت النفوس وكست الابتسامات الوجوه وانساب العمل بصورة سلسة ومنسجمة. ومن خلال تجربتي في فصل التوائم السيامية فقد عشتُ بعض هذه المواقف الطريفة بغرفة العمليات، سأشرك القارئ فيها حتى يتواصل معي في مسيرة هذا الكتاب بعيداً عن أي حشد من مصطلحات طبية أو تفاصيل علمية ثقيلة الوزن.

١ـ مؤشرات مقلقة أوقفت العملية

حظي التوأم الماليزي بوجود إعلامي عالمي ومحلي كثيف، وكانت العملية منقولة على شبكة الإنترنت مما ضاعف إحساسنا بحجم التحدي، وفي إثنائها حدث موقف صعب تسبب في إحراج وضغط نفسي هائل، فبعد ساعة من بداية عملية الفصل؛ ظهرت مؤشرات مقلقة على أحد التوائم تمثلت في انخفاض ضغط الدم وارتفاع النبض مصحوبين بارتفاع في درجة الحرارة، وذلك رغم عدم وجود أي مضاعفات جراحية أو نزيف أو غير ذلك، فاضطر الفريق إلى وقف العملية مؤقتاً، وكان هذا على مرأى ومسمع المشاهدين والمتابعين في العالم أجمع، ونتيجة لهذا تمت تغطية الجراح بفوط معقمة، وعشنا لحظتها موقفاً صعباً للغاية. ربما كان من السهل مراقبة المؤشرات الحيوية للتوأم والتعامل معها؛ ولكن لا علم لأحد بأن المؤشرات الحيوية لدى الفريق الجراحي كانت متذبذبة، وكنت مثل زملائي في حيرة وقلق، وازدادت نبضات قلبي، وارتفع النبض في شرايين، وتصبب العرق حتى بلل ملابسنا ورغم هذه الحالة تمالكت نفسي وسيطرت على أعصابي؛ إذ كان من الواجب عليَّ بصفتي رئيساً للفريق أن أكون ثابت الجنان هادئاً، وألا أُظهر أيَّ نوع من القلق، وأن أطمئن الجميع، وأشدَّ من عزيمة زملائي، ولذلك تحدثت مع الإعلاميين والديِّ التوأم من داخل غرفة العمليات بهدوء شديد وثبات وكأن شيئاً لم يكن؛ مستهدفاً من ذلك الاستمرار في العمل ضماناً

إجهاد وفرحة

هيفاء وسارة وهناء

لنجاح هذه العملية الحساسة. وفجأة شعرنا أن عناية الله جل وعلا تتدخَّل لإنقاذ الموقف، فبعد ساعة من التوقف و لتعامل مع الحدث مهنيًا وعلميًا؛ عادت الحالة للاستقرار، ولم نعرف سببًا طبياً علمياً لذلك حتى الآن، واكتملت مراحل العملية بنجاح كبير محققة إنجازًا طبياً غير مسبوق للوطن وللعالم العربي والإسلامي.. وكان فضل الله علينا عظيمًا وكرمه واسعًا.

٢ـ صاحت هيفاء: اخرجوه من غرفة العمليات

سقطت ابنتي هيفاء ذات الأعوام الثلاثة من العمر حين كانت تتابع مع أفراد أسرتي عملية فصل التوأم السيامي المصوي الأول وأصيبت بكسر في رجلها اليسرى، فنقلتها زوجتي وأختها على عجل إلى المستشفى الذي كانت تُجرى فيه العملية من أجل إسعافها، لم يجرؤ أحدٌ على إخباري خوفًا من تسرُّب القلق إلى نفسي فينعكس ذلك سلبًا على مجريات العملية. وفي غرفة الطوارئ طلبت ابنتي هيفاء كما علمتُ لاحقًا حضوري لأكون بجانبها، ولما رأت تلكؤ الفريق الذي كان يتولى معالجتها صرخت «اخرجوه من غرفة العمليات لإسعافي».. إنها براءة طفلة يافعة، ولقد نجحت عملية الفصل كما شُفيت هيفاء ولله الحمد والمنّة.

٣ـ أم خالد شاهدت الموقف.. ابق خارج المنزل!

كانت عملية التوأم البولندي صعبة ودقيقة للغاية نظرًا لاشتراك العمود الفقري والحبل الشوكي، إضافة إلى وجود شريان كبير مشترك أيضاً بين التوأم، وشهدت غرفة العمليات حدوث موقفين، أولهما كان مقلقًا من الناحية الفنية الجراحية، وثانيهما من حيث التقاليد الاجتماعية.

أولاً: كان هناك شريان كبير مشترك بين التوأم في موقع مختف تمامًا لم تكشفه الفحوصات الطبية، وكانت العملية منقولة على الهواء ويتابعها الملايين في أنحاء العالم، واثناء قص عظمة الحوض المشتركة كان هذا الشريان موجودًا على بعد ملليمترات. ولو تعمَّق منشار العظم ٤٣ ملم لحدث نزيف قد يُفقد التوأم حياته؛ ولكن توفيق الله ثم خبرة الفريق الطبي كشفت موقع الشريان وتعاملت معه بدقة وعناية رغم ما واكب الحدث من قلق وضغط نفسي كبيرين.

ثانيًا: استغرقت العملية ١٨ ساعة ونصف الساعة، وشعر جميع أفراد الفريق الطبي بإعياء شديد نتيجة الإرهاق والتعب والضغط النفسي؛ لا سيما وكاميرات وسائل الإعلام تركز عدساتها على حركة الأيدي مهما كانت دقتها، وبعد اكتمال كل مراحل العملية طغى الفرح على الوجوه، وبدأ تبادل التهاني بهذا النجاح والإنجاز، وعلمت أم التوأم بذلك فلم تتملك نفسها واقتحمت الغرفة رغم القيود ليفاجأ بها أعضاء الفريق الطبي أمامهم، نظرت إلى ابنتيها، وبعد أن تأكدت من فصلهما بسلام اتجهت ناحيتي وعانقتني رغم تراجعي السريع إلى الخلف لتفادي محاولاتها في التعبير عن شكرها بهذه الطريقة التي تعد عرفًا غربيًا في المعاملات والعلاقات الاجتماعية؛ بعكس ما لدينا في المملكة والعالم الإسلامي، وبالطبع فقد حدث هذا المشهد أمام أعين ملايين المشاهدين في شتى بقاع العالم لأن النقل المباشر لحظتها كان ما يزال مستمرًا.. وبعد قليل تلقيت اتصالاً عاجلاً من شخصية أُكنُّ لها قدرًا كبيرًا من المعزَّة والاحترام، كان المتصل صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز

مصور إحدى القنوات الفضائية داخل غرفة العمليات

عمل متواصل ومتابعة

الذي داعبني بزحة خفيفة أنستني إرهاق العملية حين قال: «لقد جهَّزتُ لك غرفة وسريرًا لتنام فيها الليلة؛ لأن زوجتك أم خالد شاهدت الحدث مثل بقية المشاهدين في العالم، والأفضل لك ألا تذهب إلى منزلك»، بالفعل كانت مداعبة لطيفة من رجل فاضل جعلتني أضحك من قلبي قبل مغادرة غرفة العمليات.. لم يكن الدافع الأساسي من اتصال سموه فقط لأجل هذه المداعبة؛ وإنما لتهنئة أسرة التوأم والفريق الطبي على هذا الإنجاز الباهر، فقد اعتدنا من سموه على مثل هذه المبادرات الطيبة.

الشاهد في الحدث أن الأم دفعتها شدَّة الفرح إلى الخروج عن كل المعايير، وأنستها أنها في بيئة إسلامية لها تقاليدها، وأعادتها إلى بيئتها الاجتماعية، ولذا كانت ردَّة فعلها هذه بمثابة إعراب عفوي عن شكرها وتقديرها للفريق الطبي ممثلاً في رئيسه، وهكذا يفعلون في العرب للتعبير عن شكرهم لمن يزجي إليهم خدمة جليلة.

٤ـ دوار أثناء العملية

«غرفة العمليات» مسمًّى يجمع بين مفردات وأحاسيس عديدة: الأمل، الرجاء، التطلع، الخوف، القلق، النجاح، الفشل.. وهي من أهم المواقع في أي مستشفى، بها تتعلق قلوب المرضى وذويهم، وترتفع داخلها درجة الإحساس بالرهبة؛ خاصة للمبتدئين من الجراحين والأطباء، وغيرهم من الراغبين في حضور العمليات من أقرباء المرضى والإعلاميين والصحفيين والمصورين، ومن ثم فهي (كبسولة) يتطلب دخولها تهيئة نفسية وصلابة في الشخصية وقدرة على التحمل تمنع الاهتزاز العاطفي وتحدُّ من التأثيرات الوجدانية والنظرات المُشفقة.. ولا شك في أن مؤشر الرهبة يرتفع إلى أعلى مستوياته كلما ازدادت المواقف صعوبة؛ لاسيما تلك التي تحيط بجراحات التوائم السيامية؛ نظرًا لضخامة العمليات وحجم الجراح والدماء ومنظر أعضاء الجسد خارج الجسد.

وقد شهدت غرفة العمليات موقفين لا يمكن نسيانهما أو محوهما من الذاكرة:

ـ أولهما: كان مصور إحدى القنوات التلفزيونية يتابع بكاميرته مراحل إحدى العمليات، وفجأة بدأ يتمايل ونحن في مرحلة حاسمة من الجراحة وأوشك على السقوط مغشيًا عليه، فلاحظ أحد الزملاء ذلك فهرع إليه وأسنده قبل أن يقع ويرتطم بأرضية الغرفة، فأنقذته عناية الله من إصابة كان يمكن أن تكون لها مضاعفات خطرة، ونُقل فورًا إلى غرفة الإفاقة، فزرته واطمأننت على حالته ووجهتُ بنقله إلى غرفة الطوارئ حيث مكث بضعة ساعات حتى استقرت حالته ثم غادرها بسلام والحمد لله. ورغم أن هذا الموقف أحدث نوعًا من الإرباك وتشتيت الانتباه للفريق الطبي؛ إلا أن المرحلة النهائية من العملية تكللت بنجاح تام بفضل الله وتوفيقه.

ـ ثانيهما: تشجيعًا للكوادر الجديدة، واستهدافًا لإكسابها خبرات عملية؛ أشركنا ذات مرة ممرضة حديثة التخرج في إحدى جراحات فصل توأم سيامي، وكانت مستعدة ومستوفية لكل متطلبات المشاركة بغرفة العمليات من تعقيم وزي وخلافه، وفجأة لاحظتُ أن جسدها بدأ يفقد الاتزان، واتسعت عيناها وارتفعتا إلى أعلى، فأومأتُ إلى إحدى زميلاتها التي سارعت إليها وساعدتها في الجلوس على مقعد قريب، ثمَّ نُقلت إلى سرير لتستلقي عليه إلى أن يزول الدوار والصدمة التي باغتتها أثناء وجودها مع الطاقم الطبي، وستر الله أن لحقتها زميلتها قبل أن تسقط وتصاب بأذى.. وبالطبع لم يؤثر ذلك على سير العملية سوى التوقف لعدة دقائق، وعادت زميلتنا إلى عملها من جديد حتى اكتملت مراحل العملية بنجاح والحمد لله.

المصور الطبي أثناء عملية فصل التوأم

مذيع إحدى القنوات الفضائية

وفي عملية أخرى أصيب المصور الطبي المختص بتصوير عمليات فصل التوائم السيامية بضيق مفاجئ في التنفس ثم اتبعه بإغماءة فوقع فجأة بيننا نتيجة الإرهاق الشديد، وتم بعدها نقله مباشرة إلى قسم الطوارئ حيث استعاد عافيته من جديد ومالبثنا أن وجدناه يلتقط لنا الصورة الجماعية للفريق الطبي بعد انتهاء العملية.

٥ـ بين الملعب وغرفة العمليات

سبقت إحدى عمليات فصل التوائم السيامية مباراة في كرة القدم، ويبدو أنها كانت مهمة؛ لأن المذيع الذي جاء لمتابعة العملية حيَّة على الهواء كان مشاركًا في تغطية المباراة، ولذلك فقد كانت مجرياتها وأحداثها مسيطرة على ذهنه ولم تفارقه حتى داخل غرفة العمليات، وكان مرتبكًا ومشدودًا إلى جو المباراة، فاقترب مني وأنا مستغرق في فصل الأمعاء بعد نجاح سابقتها مرحلة فصل الكبد، فطرح عليَّ سؤالاً على الهواء مباشرة: «بعد انتهاء الشوط الأول؛ كيف يكون الوضع في الشوط الثاني»؟ ضحكتُ؛ ولكن أسعفني (كمام الجراحة) الذي حجب هذه الضحكة عن المذيع السائل والمشاهدين، ومع ذلك أجبته بأننا في مرحلة فصل الأمعاء، وقصدتُ من ذلك فصل الأمعاء بطريقة غير محرجة!!! ولم أشأ الإجابة على طريقة السؤال المطروح بأننا سندخل بعض اللاعبين المهاجمين من (دكة الاحتياطي)!! وبعد نهاية اللقاء ومغادرة المذيع أحاط بيَّ الزملاء يروِّحون عن أنفسهم بشيء من الدعابة ويسألونني عن أخبار خطة المباراة التي لعبتها في فصل التوائم: هل كانت دفاعية أم هجومية؟ ومن سجل الهدف؟ وغير ذلك من المداعبات اللطيفة التي تحدث عادة بين الجراحين لتخفيف التوتُّرات التي قد تصاحب بعض أعضاء الفريق الطبي في العمليات الجراحية الحرجة.

٦ـ علمت زوجته على الهواء

تعوَّدنا على التقاط صورة جماعية للفريق الطبي في نهاية كل عملية لفصل توأم سيامي بهدف الذكرى وتوثيقًا للنجاح في مثل هذه الجراحات المعقَّدة التي تشارك فيها مجموعة من مختلف أطياف الأقسام الطبية المعنية، وبعد إحدى العمليات أحدثت الصورة أثرًا معاكسًا، وأفقد تداعيات أُسرية لم نحسب حسابها..!! فبينما كنا نستعد ونتهيأ للصورة جاءت إحدى الممرضات الأجنبيات واتخذت بصورة عفوية موقعًا ملاصقًا لأحد الزملاء، وعلى سبيل الترويح أيضاً بدأ الزملاء يداعبونه مهدِّدين بإخبار زوجته بعد تزويدها بالصورة، واتهموه بأنه هو الذي اختار لها هذا الموقع ودعاها للوقوف بجانبه.. استمرت هذه الدعابة والجميع يجهلون أن كل قفشاتهم وحيثيات هذا الموقف بكاملها كانت تبث على الهواء عبر شاشة التلفاز، ولم يخبرهم المنسِّق بأن المشهد يُنقل حياً..!! ولسوء حظ الرجل فقد شاهدت زوجته كل التفاصيل وسمعت كل الاتهامات، وصدَّقتها، ولم تقتنع بأن الأمر كان مجرد دعابة للتسلية والترويح بعد جهد مضنٍ وعملية شاقة.. ولا أعلم حتى اليوم ما نوع العقاب الذي وقع عليه في البيت!!! وهو آثر الصمت ولم يبح على الإطلاق بما ناله من عقاب!!

بقت خمس دقائق على نهاية العملية

الفريق الطبي